

تفسير ابن كثير

وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ

يقول تعالى : (ولقد علمتم) يا معشر اليهود ، ما حل من البأس بأهل القرية التي عصت أمر الله وخالفوا عهده وميثاقه فيما أخذه عليهم من تعظيم السبت والقيام بأمره ، إذ كان مشروعاً لهم ، فتحيلوا على اصطياد الحيتان في يوم السبت ، بما وضعوه لها من الشصوص والحبال والبرك قبل يوم السبت ، فلما جاءت يوم السبت على عاداتها في الكثرة نشبت بتلك الحبال والحيل ، فلم تخلص منها يوماً ذلك ، فلما كان الليل أخذوها بعد انقضاء السبت . فلما فعلوا ذلك مسخهم الله إلى صورة القردة ، وهي أشبه شيء بالأناسي في الشكل الظاهر وليست بإنسان حقيقة . فكذلك أعمال هؤلاء وحيلهم لما كانت مشابهة للحق في الظاهر ومخالفة له في الباطن ، كان جزاؤهم من جنس عملهم . وهذه القصة مبسطة في سورة الأعراف ، حيث يقول تعالى : (واسألهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر إذ يعدون في السبت إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعاً ويوم لا يسبثون لا تأتيهم كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون) [الأعراف : 163] القصة بكمالها . وقال السدي : أهل

هذه القرية هم أهل أيلة . وكذا قال قتادة ، وسنورد أقوال المفسرين هناك مبسطة إن شاء الله وبه الثقة . وقوله : (كونوا قردة خاسئين) قال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا أبو حذيفة ، حدثنا شبل ، عن ابن أبي نجيح ، عن مجاهد : (فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين) قال : مسخت قلوبهم ، ولم يمسخوا قردة ، وإنما هو مثل ضربه الله (كمثل الحمار يحمل أسفارا) [الجمعة : 5] . ورواه ابن جرير ، عن المثني ، عن أبي حذيفة . وعن محمد بن عمرو الباهلي ، عن أبي عاصم ، عن عيسى ، عن ابن أبي نجيح ، عن مجاهد ، به . وهذا سند جيد عن مجاهد ، وقول غريب خلاف الظاهر من السياق في هذا المقام وفي غيره ، قال الله تعالى : (قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله من لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت) الآية [المائدة : 60] . وقال العوفي في تفسيره عن ابن عباس : (فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين) فجعل [الله] منهم القردة والخنازير . فزعم أن شباب القوم صاروا قردة والمشيمة صاروا خنازير . وقال شيبان النحوي ، عن قتادة : (فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين) فصار القوم قرودا تعاوى لها أذنان بعد ما كانوا رجالا ونساء . وقال عطاء الخراساني : نودوا : يا أهل القرية ، (كونوا قردة خاسئين)

فجعل الذين نهوهم يدخلون عليهم فيقولون : يا فلان ، ألم ننهكم ؟ فيقولون برؤوسهم ، أي

بلى . وقال ابن أبي حاتم : حدثنا علي بن الحسين حدثنا عبد الله بن محمد بن ربيعة

بالمصيصة ، حدثنا محمد بن مسلم - يعني الطائفي - عن ابن أبي نجيح ، عن مجاهد ، عن

ابن عباس ، قال : إنما كان الذين اعتدوا في السبت فجعلوا قردة فواقا ثم هلكوا . ما كان

للمسخ نسل . وقال الضحاك ، عن ابن عباس : فمسخهم الله قردة بمعصيتهم ، يقول : إذ

لا يحيون في الأرض إلا ثلاثة أيام ، قال : ولم يعيش مسخ قط فوق ثلاثة أيام ، ولم يأكل

ولم يشرب ولم ينسل . وقد خلق الله القردة والخنازير وسائر الخلق في الستة الأيام التي

ذكرها الله في كتابه ، فمسخ [الله] هؤلاء القوم في صورة القردة ، وكذلك يفعل بمن

يشاء كما يشاء . ويحوله كما يشاء . وقال أبو جعفر الرازي عن الربيع ، عن أبي العالية في

قوله : (كونوا قردة خاسئين) قال : يعني أذلة صاغرين . وروي عن مجاهد ، وقتادة

والربيع ، وأبي مالك ، نحوه . وقال محمد بن إسحاق ، عن داود بن الحصين ، عن عكرمة

، قال : قال ابن عباس : إن الله إنما افترض على بني إسرائيل اليوم الذي افترض عليكم

في عيدكم - يوم الجمعة - فخالفوا إلى السبت فعظموه ، وتركوا ما أمروا به . فلما أبوا إلا

لزوم السبت ابتلاهم الله فيه ، فحرم عليهم ما أحل لهم في غيره . وكانوا في قرية بين
أيلة والطور ، يقال لها : مدين ؛ فحرم الله عليهم في السبت الحيتان : صيدها وأكلها .
وكانوا إذا كان يوم السبت أقبلت إليهم شرعا إلى ساحل بحرهم ، حتى إذا ذهب السبت
ذهبن ، فلم يروا حوتا صغيرا ولا كبيرا . حتى إذا كان يوم السبت أتين شرعا ، حتى إذا
ذهب السبت ذهبن ، فكانوا كذلك ، حتى إذا طال عليهم الأمد وقرموا إلى الحيتان ،
عمد رجل منهم فأخذ حوتا سرا يوم السبت ، فخرمه بخيط ، ثم أرسله في الماء ، وأوتد
له وتدا في الساحل فأوثقه ، ثم تركه . حتى إذا كان الغد جاء فأخذه ، أي : إني لم أخذه
في يوم السبت ثم انطلق به فأكله . حتى إذا كان يوم السبت الآخر ، عاد لمثل ذلك ،
ووجد الناس ريح الحيتان ، فقال أهل القرية : والله لقد وجدنا ريح الحيتان ، ثم عشروا
على صنيع ذلك الرجل . قال : ففعلوا كما فعل ، وصنعوا سرا زمانا طويلا لم يعجل الله
عليهم العقوبة حتى صادوها علانية وباعوها بالأسواق . فقالت طائفة منهم من أهل البقية :
ويحكم ، اتقوا الله . ونهوهم عما يصنعون . فقالت طائفة أخرى لم تأكل الحيتان ، ولم
تته القوم عما صنعوا : (لم تعظون قوما الله مهلكهم أو معذبهم عذابا شديدا قالوا معذرة

إلى ربكم) لسخطنا أعمالهم (ولعلمهم يتقون) [الأعراف : 164] . قال ابن عباس :

فبينما هم على ذلك أصبحت تلك البقية في أديتهم ومساجدهم وفقدوا الناس فلم يرونهم

قال : فقال بعضهم لبعض : إن للناس لشأنا! فانظروا ما هو . فذهبوا ينظرون في دورهم ،

فوجدوها مغلقة عليهم ، قد دخلوها ليلا فغلقوها على أنفسهم ، كما يغلق الناس على

أنفسهم فأصبحوا فيها قردة ، وإنهم ليعرفون الرجل بعينه وإنه لقرد ، والمرأة بعينها وإنها

لقردة ، والصبي بعينه وإنه لقرد . قال : يقول ابن عباس : فلولا ما ذكر الله أنه أنجى

الذين نهوا عن سوء لقلنا أهلك الجميع منهم ، قال : وهي القرية التي قال الله جل ثناؤه

لمحمد صلى الله عليه وسلم : (واسألهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر) الآية [

الأعراف : 163] . وروى الضحاك عن ابن عباس نحو من هذا . قال السدي في قوله

تعالى : (ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم في السبت فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين) قال :

فهم أهل أيلة ، وهي القرية التي كانت حاضرة البحر ، فكانت الحيتان إذا كان يوم السبت

- وقد حرم الله على اليهود أن يعملوا في السبت شيئا - لم يبق في البحر حوت إلا خرج ،

حتى يخرجن خراطيمهن من الماء ، فإذا كان يوم الأحد لزم من مقل البحر ، فلم ير منهن

شيء حتى يكون يوم السبت ، فذلك قوله تعالى : (واسألهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر إذ يعدون في السبت إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعا ويوم لا يسبتون لا تأتيهم] كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون [) . فاشتبه بعضهم السمك ، فجعل الرجل يحفر الحفيرة ، ويجعل لها نهرا إلى البحر ، فإذا كان يوم السبت فتح النهر فأقبل الموج بالحياتان يضربها حتى يلقيها في الحفيرة ، فيريد الحوت أن يخرج ، فلا يطيق من أجل قلة ماء النهر ، فيمكث فإذا كان يوم الأحد جاء فأخذه ، فجعل الرجل يشوي السمك فيجد جاره ريحه فيسأله فيخبره ، فيصنع مثل ما صنع جاره ، حتى فشا فيهم أكل السمك ، فقال لهم علماءهم : ويحكم! إنما تصطادون يوم السبت ، وهو لا يحل لكم ، فقالوا : إنما صدناه يوم الأحد حين أخذناه . فقال العلماء لا ولكنكم صدتموه يوم فتحكم الماء فدخل ، قال : وغلبوا أن ينتهوا . فقال بعض الذين نهوهم لبعض : (لم تعظون قوما الله مهلكهم أو معذبهم عذابا شديدا) يقول : لم تعظوهم ، وقد وعظتموهم فلم يطيعوكم ؟ فقال بعضهم : (معذرة إلى ربكم ولعلمهم يتقون) [الأعراف : 164] فلما أبوا قال المسلمون : والله لا نساكنكم في قرية واحدة . فقسموا القرية بجدار ، ففتح المسلمون بابا والمعتدون في

السبت بابا ، ولعنهم داود ، عليه السلام ، فجعل المسلمون يخرجون من بابهم ، والكفار من بابهم ، فخرج المسلمون ذات يوم ، ولم يفتح الكفار بابهم ، فلما أبطؤوا عليهم تسور المسلمون عليهم الحائط ، فإذا هم قردة يشب بعضهم على بعض ، ففتحوا عنهم ، فذهبوا في الأرض ، فذلك قول الله تعالى : (فلما عتوا عن ما نهوا عنه قلنا لهم كونوا قردة خاسئين) [الأعراف : 166] وذلك حين يقول : (لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم) [المائدة : 78] . فهم القردة . قلت : والغرض من هذا السياق عن هؤلاء الأئمة بيان خلاف ما ذهب إليه مجاهد ، رحمه الله ، من أن مسخهم إنما كان معنويا لا صوريا بل الصحيح أنه معنوي صوري ، والله أعلم .